



الإمام محمد الحفنى "رضوان الله عليه"

(1767م1181هـ)

وصفه الجبرتى بالشيخ الإمام العلامة الهمام أوجد أهل زمانه علمًا وعملاً، ومن أدرك ما لم تدركه الأول، المشهود له بالكمال والتحقيق، والمجمع على تقدمه فى كل فريق، شمس الملة والدين محمد بن سالم الحفنى الشافعى الخلوئى

وُلد سنة 1100هـ - 1689م ببلدة "حفنا" من قرى بلبس بمحافظة الشرقية بمصر وإليها يُنسب، فيقال الحفنى والحفناوى.. تولى مشيخة الأزهر الشريف سنة 1171هـ - 1757م، واستمر شيخًا للأزهر لمدة عشر سنوات إلى وفاته، وينتهى نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام.

نشأ فى بيئة صالحة، وكان والده على غاية من العفاف، وقد اهتم بأن يحفظ ولده القرآن وأن يلحقه بالدراسة بالأزهر، حيث أتم حفظ القرآن وبعض المتون مثل ألفية ابن مالك والجوهرية والرجبية وأبا شجاع وغير ذلك، وكان ذلك وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وأخذ العلم عن شيوخه الأعلام، واجتهد ولازم الدروس حتى تفوق على أقرانه. وأجازته أسياخه بالإفتاء والتدريس وهو فى الثانية والعشرين من عمره.

من أجل شيوخه الذين تخرج بالسند عنهم الشيخ محمد البديرى الدمياطى الذى أخذ عنه التفسير والحديث، وإحياء علوم الدين للغزالى، وصحيح البخارى ومسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجة، والموطأ، ومسنده الإمام الشافعى، والمعجم الكبير والأوسط والصغير للطبرانى، وصحيح ابن حبان، والمستدرک للنيسابورى، والحلية للحافظ أبى..نعيم وغيرها.

وشهد له معاصروه بالتقدم فى العلوم.. وكان فى ذلك الوقت فى شدة من ضيق العيش، فعمل مدة فى نسخ الكتب ليتمكن من إعاشة نفسه، وفى ذلك الوقت نزلت نفسه لسلوك طريق أهل الله، فكان يذهب إلى زاوية الشيخ شاهين الخلوتى بسفح جبل المقطم ويمكث فيها الليالى مُختلِيا بربه مقبلاً بكليته عليه. ثم جاء الفرج، وفتح الله عليه أبواب الرزق من حيث لا يحتسب.

وشهد له أساتذته وغيرهم من العلماء بالتقدم والرسوخ، وأقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه، وتخرج عليه غالب أهل عصره من العلماء، وكان على مجلسه هيبه ووقار.. وكان على جانب عظيم من مكارم الأخلاق، لخصها الجبرتى فقال:

كان كريم الطبع جدا، وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة، جميل السجايا مهاب الشكل عظيم اللحية أبيضها، كأن على وجهه قنديلا من النور. وكان له جلالة ومهابة، وكان فى الحلم على جانب عظيم، ومن مكارم أخلاقه إصغاؤه لكلام كل متكلم ولو من الخزعبلات مع انبساطه إليه وإظهار المحبة ولو أطال عليه، ومن رآه مدعيًا شيئًا سلم له فى دعواه، ومن مكارم أخلاقه أنه لو سأله إنسان أعز حاجة عليه أعطاهها له كائنة ما كانت، ويجد لذلك أنسًا وانشراحًا، ولا يعلق أمله بشى من الدنيا، وله صدقات وصلات خفية وظاهرة، وكان راتب بيته من الخبز فى كل يوم نحو الإردب، والطاحونة دائمة الدوران، وكذلك عمل البن وشربات السكر، ولا ينقطع ورود الواردين ليلا ونهارًا، ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون، ويصرف على بيوت أتباعه والمنتسبين إليه.. وكان رزقه فيضًا إلهيا. انتهى

تلقى الشيخ الحفنى الطريقة الخلوتية على شيخها العلامة السيد مصطفى البكرى قدوة السالكين ومربى المريدين، وذلك عند قدومه لمصر سنة 1133هـ قادمًا من الشام، ويصف الجبرتى هذا اللقاء بين الشيخ والمريد فيقول: "فسلم عليه وجلس، فجعل السيد (البكرى) ينظر إليه وهو كذلك ينظر إليه، فحصل بينهما الارتباط القلبي، ثم قام وجلس بين يدي السيد بعد الاستئذان، وكانت عادته إذا أتاه مريد أمره أولاً بالاستخارة، إلا هو،

فلم يأمره بها، وذلك إشارة إلى كمال الارتباط، فأخذ عليه العهد حالاً، ثم اشتغل بالذكر والمجاهدة

وقد تملكت منه محبة الشيخ، ودائماً تكون رتبة المرید على قدر محبته لشيخه وتوقيره
له، وقد بلغ الشيخ محمد الحفنى فى ذلك شأواً عظيماً، هو الذى بلغ به ما بلغ

من أمثلة تأدبه مع الشيخ وحسن طاعته أنه كان لا يتكلم فى مجلسه قط، إلا إذا سأله،
فيجيبه على قدر السؤال على الرغم مما كان له من مكانة عالية بين الناس.. ولم يزل
كذلك حتى أذن له شيخه بالتكلم فى مجلسه فى بعض رحلاته إلى القاهرة

وفى مرة قال له

تعال الليلة مع الجماعة واذكروا عندنا فى البيت -

فلما دخل الليل اشتد البرد وأمطرت السماء مطراً شديداً، فلم يتخلف، وذهب حافياً
والمطر ينسكب عليه وهو يخوض فى الوحل، فقال له الشيخ

كيف جئت فى هذه الحالة؟ -

قال:

يا سيدى أمرتمونا بالمجيء ولم تُقَيِّدوه بعذر -

فقال له

أحسننت، هذا أول قدم فى الكمال -

فقدّمه الشيخ على خلفائه، وأولاه مزيد رعايته، ودعاه بالأخ الصادق، ومنحه أسراراً
.. وفهوماً وأنواراً، وأذن له فى التلقين وأخذ العهد

كان هو بمصر، وشيخه بالشام، وكانت أشواقه للشيخ في ازدياد مستمر، حتى وصفه الجبرتي بأن انشغاله بالعلم كان بجسمه فقط، أما قلبه فكان عند شيخه.. "ولم يزل كذلك إلى عام 1149 هـ فحنَّ جسمه إلى زيارة شيخه فقال مخاطباً له شعراً

أخذتم فؤادي وهو بعضى فما الذى يضركم لو كان عندكم الكلُّ

:ويصور الجبرتي اللقاء تصويراً بديعاً فيقول

فأرسل إليه السيد يدعوه لزيارته، فهام إذ فهم رمز إشارته وتعلقت نفسه بالرحيل، فترك الإقراء والتدريس وتكشف، وسافر إلى أن وصل بالقرب من بيت المقدس. فقيل له إذا دخلت بيت المقدس فادخل من الباب الفلاني وصل ركعتين وزر محل كذا، فقال لهم: أنا ما جئت قاصداً بيت المقدس، وما جئت قاصداً إلا أستاذي، فلا أدخل إلا من بابه، ولا أصلى إلا فى بيته. فعجبوا له، فبلغ السيد كلامه فكان سبباً لإقباله عليه وإمداده. ثم سار حتى دخل بيت المقدس فتوجّه إلى بيت الأستاذ، فقابلته بالرحب والسعة، وأفراد له مكاناً، ثم أخذ فى المجاهدة فى الصلاة والصوم والذكر والعزلة والخلوة

قال: فبينما أنا جالس فى الخلوة إذا بداع يدعونى إليه، فجئت إليه فوجدت بين يديه مائدة، فقال: أنت صائم، قلت: نعم. فقال: كل. فامنتلت أمره وأكلت، فقال: اسمع ما أقول لك، إن كان مُرادك صوماً وصلاةً وجهاداً أو رياضةً فليكن ذلك فى بلدك، وأما عندنا فلا تشتغل بغيرنا ولا تُقيد أوقاتك بما تروم من المجاهدة، وإنما يكون ذلك بحسب الاستطاعة، وكل واشرب وايبسط. قال فامنتلت إشارته ومكثت عنده أربعة أشهر كأنها ساعة، غير أنى لم أفارقه قط خلوة وجلوة. ومنحه (الشيخ) فى هذه المدة الأسرار، وخلع عليه خلع القبول، وتوجّه بتاج العرفان... اهـ

وظل السيد مصطفى البكرى يُثنى عليه ويراسله نظماً ونثراً، ويدعوه بالأخ، ويعلق الجبرتي على ذلك بقوله: ولولا أنه رآه قسيماً له فى الحال ما صدر عنه ذلك المقال، حتى أن الحفنى قال له يوماً: إنى أخشى من دعائكم لى بالأخ لأنه خلاف عادة الأشياخ مع المريدين، فقال له: لا تخش من شىء. وامتدحه أشياخه ومعاصروه وتلامذته

قال الجبرتي: وللشيخ رضى الله عنه مناقب ومُكاشفات وكرامات وبشارات وخوارق عادات يطول شرحها، ذكرها الشيخ حسن المكي المعروف بشمه في كتابه الذى جمعه فى خصوص الأستاذ، وكذلك العلامة الشيخ محمد الدمهورى المعروف بالهلباوى، له مؤلف فى مناقب الشيخ ومدائحه وغير ذلك.

وقد تناقل الناس فيما بينهم ذكر كراماته ومناقبه، وقال الوزير محمد باشا راغب لبعض بنى السقاف: إنما لُقّب جدكم بالسقاف لكونه كان شقفا على اليمن من البلاء، وكذلك الشيخ الحنفى سقفاً على مصر من نزول البلاء. وقيل لبعض الأمراء: كان الأستاذ الحنفى من عجائب مصر، فقال: بل من عجائب الدنيا.

ختم الجبرتي ترجمته بذكر وفاته فقال: توفى رضى الله عنه يوم السبت قبل الظهر سابع عشر ربيع الأول سنة 1181، ودُفن يوم الأحد بعد أن صلّى عليه فى الأزهر فى مشهد عظيم جدا، وكان يوم هول كبير.

ثم قال: ومن ذلك التاريخ ابتداء نزول البلاء، واختلال أحوال الديار المصرية، وظهر مصداق قول راغب باشا **إن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء**، وهذا من المشاهد المحسوس.

وذلك أنه إذا لم يكن فى الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهدى فسَدَ نظام العالم وتنافرت القلوب، ومتى تنافرت القلوب نزل البلاء، ومن المعلوم المقرر أن صلاح الأمة بالعلماء والملوك، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء، وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده، والرّحى لا تدور بدون قطبها.

وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه، ولما شرع الأمراء القائمون بمصر فى إخراج التجاريد لعلّى بك وصالح بك واستأذنوه فمنعهم من ذلك وزجرهم وشنع عليهم ولم يأذن بذلك كما تقدم، وعلموا أنه لا يتم قصدهم بدون ذلك، فأشغلوا الأستاذ **وسموه**، فعند ذلك لم يجدوا مانعاً ولا رادعاً، وأخرجوا التجاريد، وآل الأمر لخذلانهم وهلاكهم والتمثيل بهم، وملك على بك، وفعل ما بدا له فلم يجد رادعاً أيضاً، ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض، فهذا هو السر الظاهرى وهو لا شك تابع للباطنى وهو القيام بحق وراثه النبوة وكمال المتابعة، وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وأحكام مبانى التقوى، لأنهم أمناء الله فى العالم وخالصة

بنى آدم، (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) المؤمنون: 10-
11. انتهى كلام الجبرتي

وهذا أمر مشاهد ومتكرر لا ينكره منصف، لذلك **قالوا عن أولياء الله إنهم أمان لأهل الأرض،** ومن أمثلة ذلك -أيضا- أن الشبلي كان يقول - فيما رواه المناوي في طبقاته: إنما يُحفظ هذا الجانب بي - يعنى من الديلم - فمات يوم الجمعة، وعبر الديلم الجانب الغربى يوم السبت، واستولوا على بغداد، فقال الناس مصيبتان: موت الشبلي وعبور الديلم.

(انظر طبقات المناوى)

وقد ذكر ابن كثير عبور الديلم فى أحداث سنة 334هـ التى توفى فيها الشبلى فقال: أقبل معز الدولة أحمد بن الحسن بن بويه فى جحافل عظيمة من الجيوش قاصدا بغداد، ونزل أصحابه من الديلم بدور الناس، فلقى الناس منهم ضائقة شديدة، واضطربت دار الخلافة، وسُملت عينا الخليفة المستكفى وأودع السجن حتى مات، ونهبوا بغداد، ووقع ..غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والكلاب

* * *

ترك الإمام الحفنى عددا من المصنفات العلمية والأدبية منها :

- 1- الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية فى التاريخ
- 2- حاشية على شرح الأشموني لألفية ابن مالك فى النحو
- 3- أنفس نفائس الدرر، وهو حاشية على شرح همزية البوصيرى لابن حجر الهيثمى
- 4- حاشية على شرح السمرقندى على الرسالة العضدية للإيجى فى علم الوضع
- 5- حاشية فى جزأين على الجامع الصغير للسيوطى فى الحديث
- 6- رسالة فى التقليد فى الفروع فى أصول الفقه
- 7- حاشية على شرح الفوائد الشنشورية للشنشورى على الرحبية فى المواريث
- 8- حاشية على السبط الماردينى للياسمينية فى الجبر والمقابلة

9- رسالة فى الأحاديث المتعلقة برؤيَّة النبى صلى الله عليه وسلم سماها درر التنوير
برؤيَّة البشير النذير

10- رسالة فى فضل التسبيح والتمجيد فى الفضائل والآداب

11- حاشية على شرح الحفيد على مختصر جده السعد التفتازانى فى البلاغة

12- شرح المسألة فى تحليل المطلقة (ثلاثا)

13- مختصر شرح منظومة المنينى الدمشقى فى مصطلح الحديث

ونظم الشعر باللغة الفصحى وبالعامية لأن مقصوده هو الدعوة والترغيب فى سلوك
الطريق إلى الله، مثل قوله بالعامية

يامُبتغى طرق أهل الله والتسليك دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكليك
(أن اذكرونى) [11] لرد المعترض يكفيك فاجعل سلاف الجلالة دائما فى فيك
ومن جميل نظمه قوله

لو فتشوا قلبى لألقوا به سطين قد حُطاً بلا كاتب

العلم والتوحيد فى جانب وحب آل البيت فى جانب

مراجع

تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى

مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، على عبد العظيم، مجمع البحوث الإسلامية
1978م

الأزهر الشريف فى ضوء سيرة أعلامه الأجلاء، د. عبد الله سلامة نصر، مكتبة
الإيمان، العجوزة، القاهرة

(1) إشارة إلى قوله تعالى (فانكروني أنكركم) البقرة 152

http://www.mkthabit.com/index.php?option=com_content&view=article&id=4058:-1181-1767&catid=1021:2011-01-12-21-37-32&Itemid=237

حامد جوده

الراجى عفوره